أنماط العمارة الدفاعية بمنطقة قالمة خلال الفترتين الرومانية والبيزنطية

أ. بوشارب سلوى
قسم التاريخ والآثار
جامعة 8 ماي 1945 قالمة

عرفت منطقة قالمة (مدينة كالما وريفها) أنماطا مختلفة من العمارة الدفاعية وكان ذلك الاختلاف من حيث الشكل والمضمون .بدأت عملية تشييد هذا النوع من المباني العسكرية في فترة الاحتلال الروماني لتستمر في الفترة البيزنطية سواء من خلال إعادة استعمالها إن بقيت صالحة أ واستعمال مواد بناءها لتشييد أخرى جديدة بنفس الموقع أ وقريبة منه، وهذا ما يصعب عملية تأريخها .

Résumé :

LA Région de Guelma reconnut plusieurs types différents des ouvrages de défense, cette différence était de forme et de fond, l'opération de construire ce type de constructions militaires était débuter a l'époque de colonisation romaine, continua jusqu'au celle bezintique ; concernant la réutilisation si restera encore utile ou bien de profiter de ses matériaux pour construire d'autres nouveaux dans la même région ou proche de celle-ci ce qui rend sa datation plus difficile.

مقدمة:

يعتبر الاختيار الجيد لمختلف المواقع الإستراتيجية المرتبطة أساسا بشبكة الطرق الأساسية والثانوية التي استعملت في تشييد أنواع متعددة من العمارة الدفاعية أحد العوامل الرئيسية في نجاعة عملية التحكم العسكري عبر كامل المنطقة المدروسة. ولذلك جعلت إشكالية هذه المقال تتمحور حول : فيما إذا كان تنوع العمارة الدفاعية بمنطقة قالمة مرتبط أساسا بشبكة الطرق بنوعيها الرئيسية والثانوية أم يرجع إلى الطبيعة الجغرافية والبشرية للمنطقة . أ وبصيغة أخرى ما هي مختلف العوامل الطبيعية والبشرية المتحكمة في طبيعة هذه المنشآت وتنوعها؟ .

وللإجابة على هذه الإشكالية قسمت مقالي إلى جزأين: عالجت في الجزء الأولظهور العمارة الدفاعية بالمغرب القديم وعوامل انتشارهابالمنطقة.ثم تطرقت الى أهمية شبكة الطرق ودورها في السياسة العسكرية .أماالجزء الثاني فقد خصصته لدراسة أنواعها المختلفة من حيث الموقع والشكل وطرق البناء وعلاقتها بالجغرافيا الطبيعية والبشرية من جهة وشبكة الطرق المستعملة في الفترتين الرومانية والبيزنطية من جهة ثانية. وفي الأخير حاولت أن أقارن بين تلك الأنماط خلال الفترتين السابقتي الذكر.

أولا ـ ظهور العمارة الدفاعية بالمغرب القديم وعوامل انتشارها:

لقد ارتبط ظهور العمارة الدفاعية بالمغرب القديم في شكلها الأكثر تطورا بكل من الاحتلال الروماني والبيزنطي. وإذا كانت الآراء قد اختلفت حول الكيفية التي استطاعوا بواسطتها بسط سيطرتهم على كامل شمال إفريقيا وطريقة تطبيق مختلف السياسات العسكرية، فقد أجمع معظمهم على أن ذلك تم عن طريق توزيع مختلف

المنشآت الدفاعية على كل خطوط الليمس من جهة، وبداخل كل مقاطعة من جهة أخرى[1].

حيث يرى الباحث ديهل Diehl أن نجاحها كان مرتبطا في الأصل بارتفاع عدد المباني العسكرية التي وزعت في كل المناطق الداخلية والمتمثلة في مراكز المراقبة كالأبراج والقلاع والحصون من أجل تطويق كامل البلاد التي سيجت حسبه بسلسلة من المعالم العسكرية لمنع المتمردين والثوار من التوغل داخل المقاطعات[2].

وقد ساعدهم في ذلك مجموعة من العوامل نذكر منها:

1ـ العامل الجغرافي:

إن ارتكاز السياسة العسكرية الرومانية وخليفتها البيزنطية على تشييد المنشآت العسكرية بمختلف أنواعها قد كان نابعا من مختلف الصعوبات التوي واجهتهما أثناء احتلالهما للمنطقة. ولأنه كان عليهما مواجهة حيز جغرافي واسع تتميز كل منطقة منه عن الأخرى باختلاف عناصرها التضاريسية، فقد حاولوا التعامل مع ما توفرهطبيعة كل منطقة من حواجز جبلية أ ومجاري مائية لإقامة المنشآت العسكرية بمختلف أنواعها. ويظهر ذلك أثناء القرن الثالث الميلادي حيث استعمل الرومان أغلب هذه الحواجز لإقامة خطوط الليمس المتنوعة مثل استعمالهم لواد جدي بجنوب نوميديا كحد فاصل بين الممتلكات الرومانية وما ه وخارج عن إرادتها[3].

آخذين بعين الاعتبار التوافق بين المعطيات الجغرافية والمناخية في إقامة مراكز المراقبة العسكرية التي أصبحت ترسم معظم الخطوط الحدودية وفقا لتضاريس كل منطقة .

[1] دريسي سليم :،البيزنطيون في شمال إفريقيا الاحتلال و العمارة الدفاعية ، دكتوراه دولة في الآثار القديمة ، الجزائر 2007 ـ 2008، ص 195 .

[2] Diehl (Ch.), L'Afrique Byzantine, 226.

[3] Cagnat(R.) , L'armée Romaine D'Afrique, p 642.

وبما أن كلا الهيئتين العسكريتين الرومانية والبيزنطية قد استعملتا نفس المواقع كمقرات دفاعية لمراقبة تحركات سكان المنطقة خاصة الثوار منهم.

وتعتبر فكرة إقامة مثل هذه الخطوط دليلا واضحا على مدى نجاح المستعمر في التعامل مع المحيط الطبيعي واستغلاله جيدا للتحكم في النسيج الاجتماعي من خلال تكثيف إنشاء المدن والقرى بكل أحجامها من جهة وتوفير أمنها وسلامتها من جهة ثانية[1].

2ـ العامل الاقتصادي:

شكلت الثروة الفلاحية الإفريقية الهدف الأساسي لدى دعاة التوسع الروماني ببلاد المغرب القديم . حيث تفطنوا منذ البداية إلى ضرورة تنظيم الاقتصاد الزراعي الإفريقي والتحكم في توجيهه لأنه يشكل الحل المناسب لحل مشاكلهم بالوطن الأم روما[2]. فمنذ القرن الأول قبل الميلاد بدأ اهتمام الرومان بالقمح الإفريقي يزداد يوما بعد يوم ويظهر ذلك في حديث يوليوس قيصر الذي أشاد بضمه لبلد له القدرة على تزويد روما بما تحتاج من القمح أثناء احتفاله باحتلاله لمملكة نوميديا عام 46 ق.م[3]. وأمام تعاظم أهمية القمح بالنسبة لروما، فقد ازدادت مكانة الأرض التي تنتجه، حيث اتسعت المساحات المخصصة لزراعته تدريجيا مع التوسع الروماني نح والمناطق الداخلية. وهكذا عرف القرن الأول في السياسة الزراعية للأباطرة الرومان بقرن القمح. بينما عرف القرن الثاني بقرن الزيتون لأن مادة الزيت قد أصبحت الأكثر

[1] دريسي سليم ،المرجع السابق، ص ص 196، 198.

[2] محمد البشير شنيتي ، التغيرات الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني و دورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب ، زيغود يوسف الجزائر 1984 ،ص 86 .

[3] عقون محمد العربي ، الاقتصاد و المجتمع في الشمال الإفريقي القديم،ديوان المطبوعات الجامعية،الساحة المركزية،بن عكنون،الجزائر،2008،ص ص97، 98.

طلبا لدي المجتمع الروماني. ويظهر ذلك جليا من خلال تشييد أعداد كبيرة من معاصر الزيتون بالمنطقة، حيث لا تخلوا مدينة من عدد منها[1].

وهذا ما لاحظته أثناء الدراسة الميدانية لعدد من المواقع الأثرية بمدينة قالمة، حيث قمت بإحصاء 15 معصرة بموقع حجر بوريون ببلدية بوهمدان . كما تجدر الإشارة إلى توفر هذه المعاصر حتى بالمنشآت العسكرية فقد تم العثور عليها أ وعلى بعض أجزائها ضمن بقايا أثار الحصون والقلاع.

في الحقيقة فإن النجاح الذي حققته السياسة الفلاحية الرومانية لم يكن مرتبطا أساسا بحسن استغلال الأرض فحسب بقدر ما كان مرهونا بالتحكم في الحالة الأمنية بالمنطقة، وهذا ما توفره شبكة الطرق الآمنة .لذا كان لا بد من شق الطرق الرئيسية التي تربط بين مختلف المدن الداخلية والساحلية . بعد تزويد المدن بشبكة طرق ثانوية تربطها بأريافها ثم العمل على تأمينها بمجموعة من المرافق الدفاعية[2]. لتحقيق أهدافها المتمثلة في:

ـتشكيل خطوط دفاعية لإخضاع الأهالي وضمان الأمن وتيسير التدخل العسكري عند الطوارئ.

ـ توفير وسائل النقل الآمنة للسكان وبالتالي الربط بين مختلف عناصر المجتمع (سكان الريف والمدينة) .من أجل استثمار القدرات الريفية وجعلها في خدمة المدينة.

[1] محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص ص 90، 91.
[2] دريسي سليم، المرجع السابق، ص 208.

ـضمان نقل البضائع بمختلف أنواعها من مناطق إنتاجها إلى مراكز تجميعها وتخزينها لتواصل طريقها إلى موانئ التصدير نح وروما. لتتيح بذلك الفرصة أمام استغلال إمكانيات البلاد المحتلة اقتصاديا وتوجيهها لخدمة روما[1].

وبعد اطلاعي وقراءتي للخرائط الأثرية الخاصة بشمال إفريقيا خاصة الجهة الشرقية منه تبين لي أن معظم المدن الساحلية كانت مرتبطة فيما بينها بطريق ساحلي تنطلق منه معظم الطرق الرئيسية التي تربط كل المقاطعات فيما بينها، دون أن ننسى شبكة الطرق الثانوية المنتشرة بداخل هذه الأخيرة لتربط بين مختلف أريافها ومدنها.لتشكل في مجموعها أحزمة دفاعية تضم المناطق الخاضعة للرقابة العسكرية وهذا ما سنتطرق له بالتفصيل في العنصر الموالي.

ثانيا: شبكة الطرق ودورها في السياسة العسكرية:

نظرا للأهمية البالغة لشبكة الطرق بالنسبة للاقتصاد الروماني ولأن هذا الأخير يعد السبب الرئيسي في احتلال الرومان لشمال إفريقيا، فقد ارتبط تاريخ إنشائها في بادئ الأمر حسب المؤرخ محمد البشير شنيتي بالحالة العسكرية التي سادت البلاد آنذاك . حيث كان شق الطرق في بداية الأمر عبارة عن إجراء عسكري محض، لأن أول طريق استراتيجي أقامه الرومان بمنطقة الشرق النوميدي قد تم إنشاؤه سنة 14م بناء على الحالة الأمنية المتدهورة التي شهدتها ولاية إفريقيا البروقنصلية أواخر عهد الإمبراطور أغسطس، الذي أمر جنود الفيلق الثالث الأغسطي بإنشاء طريق يربط بين معسكر جيشه في حيدرة مرورا بتبسة إلى قابس. وقد قام البروقنصلاسبويناس(Nonius Aspoenas) بتدشينه رسميا[2].

[1]Salama (P), Les Voies Romaines De l'Afrique Du Nord, Imprimerie Officiel Du Gouvernement General De L'Algérie, Alger, 1951, p 102.

[2]Salama (P), Ibid. p 24 .

وكان الهدف من ذلك هـ وتسهيل عملية التموين من خارج إفريقيا عن طريق ميناء قابس والسيطرة على المنطقة وإخضاع سكانها الثائرين ضدهم . ومن ثمة ضمان أمن المقاطعة وتسهيل عملية التدخل كلما اقتضى الأمر. لذلك فقد مكنت الطرق الممتدة بين المقاطعات انطلاقا من المدن الكبرى والموانئ من تجاوز العوائق الطبيعية والبشرية بين مركز السلطة بروما وممثليها في المقاطعات التابعة لها.

هذا فضلا عن مساهمتها في تنشيط حركة الاستيطان في المناطق الداخلية ذات الطابع الريفي بتشجيع المستوطنين الرومان على إقامة المستوطنات الفلاحية من مزارع وضياع كبرى نظرا لتوفر الأمن ووسائل الاتصال بها[1]. ومن بين تلك الطرق نجد الطريق الرئيسي الذي ينطلق من قرطاجة إلى سيرتا مرورا بعدد من المدن المهمة (ينظر الشكل رقم 1)[2]. ونظرا لأهميته الاستراتيجيةفه ويقطع مقاطعة البروقنصلية من الشرق إلى الغرب لذا اقتصرت أغلب جهود الدولتين الرومانية والبيزنطية على تأمينه بعدد من المباني الدفاعية موزعة بإحكام على طول الطريق.

يظهر هذا الطريق داخل منطقة قالمة ابتداء من غرب جبل بارد وفي الحدود بين بلديتي عين العربي وعين صندل، ويمر تقريبا على نفس مسار الطريق المعبد الحالي الرابطبين جامع محروف وعين صندل قاطعا بذلك المنحدرات الشمالية لجبل النقيب وكدية الركاكيب محميا بعدد من أبراج المراقبة لكل من كاف الركاكيب ومزارة لالة عيشة ومشتة بئر يوسف وبمركزين عسكريين لكل من فج الحطابة ومشتة بن كاشر . ومن جامع محروف ينحني الطريق نح والشمال إلى قلعة قصر عثمان مرورا بالمعسكر الفرنسي المعروف سي علي الشريف، وخروجا من قصر عثمان يحمي هذا الطريق برج

[1] محمد البشير شنيتي ، المرجع السابق، ص 117.

[2]Louis Lacroix, Numidie Et Mauritanie, Afrique Ancienne, T1, Editions Bouslama, Tunis P 181.

لازروت حيث يتوجه جنوبا بمسافة 1200 م مرورا ببرج مراد ثم يتوجه غربا بمحاذاة برج مزارةبودبوز ليقطع واد الشارف عبر مجاز بن عقوب ،بينما يصعد شمالا ليقطع شعبة الفج لبيض ليصل الى مفترق الطرق لعيون الجمل، وبعدها يواصل مساره نح والشمال عبر كاف أم الشطوب وهنشير زيدان مرورا ببرج كرباسة وليصل إلى تيبيليس ومنها الى سيرتا[1].

وهناك شبكة طرق ثانوية تتفرع من الطريق الرئيسي لا تقل أهمية عنه تربط بين مدينة قالمة بالمدن والقرى المجاورة لها، وهي محمية بعدد كبير من المنشآت الدفاعية لاتزال بقايا آثارها إلى اليوم منها ما هـ ومذكور في الأطلس الأثري لستيفان قزال ومنها ما بقي مجهولا بحاجة للكشف عنه ودراسته، لذا سنحاول في العنصر الموالي تناول نماذج مختلفة منها بالدراسة والتحليل.

ثالثا ـ أنماط العمارة الدفاعية بمنطقة قالمة:

عرفت منطقة قالمة خلال احتلالها من طرف الرومان أ والبيزنطيين تشييد العديد من المنشآت العسكرية المختلفة من حيث الشكل والمساحة، الوظيفة وطرق البناء وحتى بالنسبة للأمكنة التي بنيت فيها . وبناء على ذلك فقد المختصون بتصنيفها إلى مدن محصنة ومعسكرات وقلاع وحصون وأبراج للمراقبة. وسنورد فيما يلي نماذج عن كل صنف:

1ـ المدن المحصنة (Civitate): تعتبر مدينة كالما واحدة من تلك المدن التي تغطي مساحة كبيرة قدرها 4,33هـ خصصت للمدنيين والعسكريين في آن واحد، وقد أحيطت بسور دفاعي لحمايتها ظلت بقايا بعض أجزائه موجودة خلال بداية

[1] محمد فوزي معلم، الخريطة الأثرية لبلديتي عين العربي و عين مخلوف جنوب قالمة ، رسالة ماجستير في علم الآثار، معهد الآثار الجزائر العاصمة، 2007ـ 2008. ص 73.

القرن الماضي حسب رافوازي ينظر (الرقم 2 في الشكل 1). حيث نلاحظ بقايا منه في الجانب الغربي تمتد بشكل مستقيم باتجاه ش ش / شر ج ج غ(شمال شرق، شرق جنوب وجنوب غرب).بينما يمتد جزء أخر بشكل منحن ليعود إلى الاستقامة باتجاه الغرب .في حين نجده في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة يقترب من القلعة البيزنطية من جانبها الغربي الذي يعتقد أنه يعود للفترة الرومانية . إضافة إلى جزء آخر من الجهة الجنوبية الغربية من القلعة حتى البرج الأول منها ينظر (رقم1 من الشكل 1)[1].

وقد لاحظ علماء الآثار أن هذا الجزء من الجدار يختلف في تقنية بنائه عن باقي الجدران فه وأكثر تهذيبا لذا قد يعود إلى فترة أكثر قدما من البيزنطية أي الفترة الرومانية[2]. كما تتوفر المدينة أيضا على آثار لبقايا قلعة بيزنطية تتواجد في الناحية ج / شر من المدينة العتيقة[3]. ينظر (الرقم 14 من الشكل 1) يبلغ طولها 278 م ويصل عرضها إلى 19م . تذكر الكتابة المنقوشة فوق البوابة اسم الجنرال البيزنطي باتريس سلومونPatrice Solomon الذي أمر ببنائها وتشير أيضا لاحتوائها على 13 برجا[4].

الحقيقة أن القلعة كانت تحيط خلال تلك الفترة بمدينة صغيرة، ذات أبعاد غير منتظمة، وكانت مراكز الحراسة بها تحمل أقواسا، أما جدارها فه وسميك يصل لثلاثة

[1]Ravoisie (R), Exploration scientifique de L'Algérie, II, 22, 23, 30, Vigneral (CH), Ruines Romaines DeL'Algérie Imprimerie De J, Calye Paris, 1867, p 7, 8, Gesell, (ST), Atlas Archéologique De L'Algérie, F9, N 146.

[2] محمد خير أورفه لي،كالما (قالمة) بقايا دراسة وصفية للبقايا الأثرية للمدينة، مجلة آثار ،ع 6 ،معهد الآثار جامعة الجزائر ،2007 ص 30.

[3]Delamare, Exploration scientifique de L'Algérie, Archéologie,Paris,1850 ,pl, 171, Fig3, Grellois, Eugène, EtudesArchéologique sur Guelma et Hammam Maskoutaine, Imprimerie s, lamort du palais, 1852, p 14.

[4] Gesell, (ST), Inscription Latines de L'Algérie, T1,Paris, 1922, N 276 .

أمتار(3م)، مجنحا ذ وأبراج مربعة عددها إحدى عشر (11) وكان له عدد من الأبواب الضيقة واحد منها ينفتح قرب بقايا الحمامات الرومانية[1]. تعلوه كتابة تشير إلى أنه تحت حماية,القديسان كليمنت وفانسان[2].

2ـ المراكز العسكرية (المعسكراتCastra) :

هي عبارة عن هيأت سكنية ضخمة ذات نمط معماري خاص تتطلب مساحات واسعة[3]. يتراوح معدلها مابين 1,5 هـ إلى 3هـ،شيد البعض منها في مواقع إستراتيجية معزولة بينما يظهر البعض الآخر وسط المراكز الحضارية أ وبجوارها من أجل حراستها والدفاع عنها ضد الغزاة[4].أما عن تواجد هذا النمط بالمنطقة المدروسة فسنتناول نماذج منها فيما يأتي :

أكاف بالزيون (Zattara) : توجد على بعد 18 كلم جنوب شرق قالمة على الضفة الشرقية لواد حمام الرومية، وأهميتها تكمن في أنها نقطة وصل بين كل من قالمة وقلعة سيدي يحيى ومن جهة أخرى بين خميسة وتيفاشي امتاز الموقع بحصانة طبيعية فقد شيد فوق هضبة القمة الصخرية لكاف الريح، والتي لا تسمح بالوصول إليه إلا عن طريق الغرب الأمر الذي دفع بالمهندسين لإنجاز مخطط يكتفون فيه بتقنية السور كعنصر دفاعي طوله 360 م مدعم بثمانية (8) أبراج للمراقبة، والاكتفاء بركام من الحجارة الصغيرة في الجهة المحصنة طبيعيا[5]. مما جعل مساحة الموقع حوالي 2,74 هـ

[1]Grellois, Op.cit. , p p16, 17,
[2] Gesell, (ST), CIL, VII, 5352.
[3] محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص 64.
[4] دريسي سليم، المرجع السابق، ص 266.
[5]Vigneral (CH),Op.cit. p 26_ 28 Gesell, (ST), A.A.Alg, F 18, N 233, Bernelle,(M,R) ,Vestiges Antiques De L'Oued Charf,R. S. A. C. 1892 , p78,82.

ينظر (الشكل 2). أما بالنسبة لتقنية البناء فهي غير متقنة فقد اعتمدوا فيها على حجارة مستعملة من المقبرة الوثنية كالنصب الجنائزية مما افقد السور منظره الجمالي لعدم تراص وتناسق حجارته فيما بينها[1].

ب ـ مركز هنشير لولو:(إحداثيات لامبير909,4 شمال،336,8 شرق،820م إرتفاع)

يوجد هذا الموقع عند مدخل بلدية عين مخلوف (Renier) من الجهة الشرقية على الطريق الوطني رقم 123 ،الذي يربطها ببلدية عين العربي، وتحديدا جنوب هذا الطريق خلف الثانوية الجديدة[2]. حيث يذكر الباحث فينيرال أن الموقع عبارة عن ربوة صغيرة دائرية الشكل تحتوي على بقايا أثرية مختلفة تتمثل في حجارة مصقولة إضافة إلى مجموعة من القواعد المربعة الشكل ذات مقاسات تقدر ب15 م . لكنه لم يستطع تحديد هويتها في وقته واعتبرها مبهمة[3].بينماأشار ستيفان قزال[4]بعده في أطلسه الأثري أن الموقع يحتوي على بقايا أثرية تعود للفترة الرومانية تمثل بقايا مركز عسكري هام تبلغ مساحته حوالي15 هـ .

وقد شاطره الباحث الفرنسي برنال الرأي معتبرا تلك الآثار بقايا لثكنات عسكرية أ ومخازن مخصصة لإيواء الفرسان الذين أتوا لأداء الخدمة العسكرية، إذ يتم التكفل بهم من قبل المستفيدين من الإعفاء الكلي أ والجزئي للضرائب[5].

[1]Vigneral (CH),Op.cit. p 27, Gesell, (ST), Les Monuments Antiques De L'Algérie, T2, Paris 1901, p393

[2] محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص 44.

3Vigneral (CH), Op.cit. p 38

4 Gesell, (ST), A.A.Alg, F 18, N132

5Bernelle, (M, R),Op.cit. p83,84

ج ـ تيبيليس(Thibilis):

تقع مدينة تيبيليسسلاوة عنونة حاليا على بعد حوالي 20 كلم غرب مدينة قالمة، بمحاذاة الطريق الرابط بين هذه الأخيرة وقسنطينة تبلغ مساحتها حسب قزال25هـ[1]. يوجد الموقع على هضبة تطوقها الجبال،فمن الشمال الشرقي نجد جبل ماونة، ومغارة جبل طاية من الشمال الغربي (18كلم) عن عنونة وكذلك جبلي الصادة وكرورة،بينما يأتي من الجنوب منحدر جبل عنونة ،في حين يرتفع جبل خماجة من الجنوب الشرقي وينبع من الشرق واد الشارف على بعد 5كلم من عنونة وه والحد الفاصل بين مقاطعتي نوميديا وإفريقيا البروقنصلية[2].تحيط بالموقع أراضي خصبة تتوفر على ينابيع مياه كثيرة، إضافة إلى تمتعها بمناخ جيد لذا فقد خصصت أراضيها لزراعة الحبوب بالدرجة الأولى. أما موقعها حسب إحداثيات لامبير909 شمال،353,3غرب،562م ارتفاع.

إن موقع المدينة الاستراتيجي جعلها تشرف على عدد هام من المسالك التي تمر بها كالطريق الرئيسي الذي يربط بين قرطاج وقسنطينة . أ وتنطلق منها لتربطها بالمدن والقرى المحيطة بها[3].لذا فهي تتوفر على عدد من المنشآت الدفاعية، حيث تتحدث تقارير القرن 19م عن وجود سور يحمي المدينة من الناحية الجنوبية شيد بالحجارة الضخمة المستعملة من المقبرة الوثنية مما يرجح فكرة عودته للفترة البيزنطية(ينظر الصور رقم 1و2و3). ويذكر قزال أنه كان مدعما بأبراج مستطيلة الشكل

1 Gesell, (ST), Les Monuments Antiques De L'Algérie, T1, Paris, 1901, p125

[2]Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N107, Gesell, (ST), Joly(Ch Al), Khamissa, Mdaorouch, Announa, TroisiemePariie,Announa, Paris, 1918, p 7_12

[3]Bernelle, (M, R),Op.cit. p p 55,56

لغرض المراقبة . كما أشار أيضا إلى قوس النصر الجنوبي الذي أصبح من المداخل المحصنة للمدينة[1]،ينظر الشكل رقم3.

3ـالقلاع (Castellum):

يعتبر هذا النوع من المنشآت العسكرية بمثابة الممون الرئيسي لباقي أنواعها الأخرى[2]، ويمكن للقلاع احتواء سرية أ وسريتين من الجند، تتقارب مقاساتها مع مقاسات المعسكر في الفترة الرومانية تتراوح مساحتها مابين 0,5 هـ و1,5هـ[3]. ومن خلال دراستنا لهذهالمنطقة تبين لنا وجود عدد منها مختلفة من حيث الشكل والمضمون وسنذكر نماذج منها:

أ ـ قلعة بوعطفان:

تقع قلعة بوعطفان على بعد حوالي 2500م جنوب شرق بلدية عين العربي حيث أشار ستيفان قزال في الخريطة الأثرية إلى وجود بقايا رومانية . علما أن اسم الموقع القديم بقي مجهولا[4]. ومع ذلك فإنه يحتل موقعا استراتيجيا مهما، إذ نجده بمحاذاة واد شنيور من جهة الشمال أين تنتصب القلعة فوقه بحوالي 80م[5]. وتمتد هذه الأخيرة من الشرق نح والغرب بمسافة تقدر مابين 500م و600م[6]. أما حسب إحداثيات لامبير فتقع923,7 شمال،337,9 غرب،866م ارتفاع ومن بين تلك الآثار أيضا بقايا حصن ذ ومقاسات 40م على 30م مبني بحجارة جد مصقولة مزدوجة تشكل جدار سمكه 1,50 م، إضافة إلى استخدام حجارة مستعملة سابقا

[1] Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N107

[2] محمد فوزي معلم، المرجع السابق، ص 65.

[3] دريسي سليم، المرجع السابق، ص 269 .

[4] Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N200

[5] Vigneral (CH), Op.cit. p 33

[6] Reboud , Excursions dans la mahouna (2partie) R.S.A.C, Vol IXVII,1864

كعتبات الأبواب ومضادات ثقل معاصر الزيتون وبعض العناصر المعمارية الأخرى[1].

يرى الباحث محمد فوزي معلم أنه بالرغم من موقع القلعة المحصن طبيعيا من الجهة الشمالية بالمنحدرات الصعبة لوادي شنيور فإن القدامى دعموه بحصن في قمة المنحدر، هذا الأخير الذي رأى بأنه أعيد استعماله في الفترات اللاحقة [2] وما يفسر في اعتقادي وجود بعض العناصر المعمارية قواعد البنايات الضخمة ومضادات الثقل ضمن بقايا أسوار الحصن أي أنه أعيد استعمالها كما سبق وأشرنا.

ب ـ قصر عثمان:

يشرف الموقع على السهول الممتدة مابين واد الشارف وواد السبت[3] على مسافة حوالي 20كلم جنوب غرب مدينة قالمة .على امتداد الطريق الرابط بين خميسة وتيفاش مع تيبيليس[4]. وبالضبط في المكان الواقع على بعد 1800م جنوب شرق هنشيرمشتةالمكيمن و1700م غرب جنوب برج سي علي الشريف[5]. وحسب إحداثيات لامبير فتقع بين 918,8شمال،341,1 شرق، 872 م ارتفاع.

يشير الباحث فينيرال إلى وجود بقايا أثرية تتمثل في مركز عسكري مهم فوق قمة المنحدر الذي يشرف من الجهة الجنوبية على واد فرادة أ وواد السبت حاليا بارتفاع يقدر بحوالي 125م.

وتحتل القلعة القمة الصخرية بطول 150م أما العرض فه ومتغير مابين 15و30م[6].حسب بيرنال فالقلعة موجودة في الجهة الشمالية وهي لا تزال واضحة

[1]Vigneral (CH), Op.cit. p 33

[2] محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص 65.

[3]Gesell, (ST), A.A.Alg, F18,N 193 .

[4] يوسف عيبش، الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، دكتوراه دولة في التاريخ و الآثار قسم التاريخ و الآثار ،جامعة منتوري قسنطينة، 2007ـ 2008،ص 427.

[5] محمد فوزي معلم ، المرجع السابق،ص 10.

[6]Vigneral (CH), Op.cit. p 29.

من عدة جوانب،تحتوي على أسس من الصخور الضخمة مجمعة دون ملاط[1].بينما يذكر قزال بأن جدرانها في حالة حفظ سيئة ومع ذلك يمكن التعرف على شكلها الذي يبد ومستطيلا، ينظر(الشكل رقم4). وهي محصنة من الجهة الشمالية بجدار متواصل مع الحاجز الطبيعي يبلغ سمكه مابين 40سم و160سم، مبني بطريقة مزدوجة مع وجود الحجارة الصغيرة (الدبش) في وسطه . أما الجهة الشرقية فقد دعمت بثلاثة أبراج. وتمت قراءة مخطط هذه القلعة في شكل عدة أسوار متوازية من الشرق إلى الغرب[2].يرى الباحث يوسف عيبش بأن شدة انحدار الموقع من الجهتين الشرقية والغربية هـ ومن أدى إلى اضمحلال أسوارها بفعل الانزلاق. كما اعتبر الأسوار الداخلية مجرد هياكل داخلية للقلعة، وليست تحصينات موجهة لدعم القلاع الخارجية كما اقترح قزال[3].

4ـ الحصون(Castra):

يعد هذا النمط من ضمن المنشآت الدفاعية الأكثر أهمية بالرغم من صغر حجمها مقارنة بالأنواع السالفة الذكر ،إذ أنها تتميز بعدة خصائص تكمن في اختيار الموقع الجغرافي والمحصن طبيعيا، كما نجدها بالقرب من القلاع أ وتحرسها من جهة أعلى منها.كما يمكن إيجادها في أماكن منعزلة تشرف على المناطق المجاورة لها، أ وبالقرب من المجاري المائية.أما حجارتها فهي جد سميكة وصلبة إضافة إلى تميزها بوجود المدخل وصعوبة الوصول إليه[4]. أما بالنسبة لوجود هذا النمط بالمنطقة المدروسة فيمكن تمييز نوعين منها النمط الأولبني خصيصا لهذه الوظيفة، بينما النمط الثاني فقد

[1]Bernelle, (M, R),Op.cit. p 61.
[2]Gesell, (ST), Les Monuments Antiques ... T2 , p395.
[3] يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 427.
[4] محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص 67.

تم تحويله من منشآت أخرى لغرض الدفاع أثناء أوقات الحرب. وسنقدم أنموذجا عن كل نمط.

أ ـ حصن هنشيرعين معروف:

يشير المؤرخ ستيفان قزال في أطلسه الأثري إلى مشتة عين معروف أ وهنشير بالهابط كما يسميها فينيرال حيث توجد آثار رومانية تقدر مساحتها ب 2 هـ تحتوي على بقايا واضحة لحصن مربع مبني بواسطة صخور ضخمة[1].الموقع يتمركز فوق تلة صعبة الاختراق من ثلاث جهات متكونة من شعبة عين أم لسنام، ومجرى أخر يؤدي إلى واد شنيور.أسس السور محفوظة بشكل جيد[2] . أما حسب إحداثيات لامبيرفه ويقع بين 920,6 شمال، 338,3شرق820 م ارتفاع) . الموقع حاليا وصفه الباحث محمد فوزي معلم بعد زيارتهالميدانية له بأنه اندثرحيث لم يسجل سوى بعض الحجارة المصقولة التي مازالت في مكانها، بينما استعمل البعض الآخر في مختلف البنايات الحديثة[3].

ب ـ حصن هنشير عين العريمة:

جاء في الأطلس الأثري أن المكان الواقع على بعد حوالي 500م شرق مشتةالطباقة توجد بقايا أثرية رومانية [4]، أما حسب إحداثيات لامبير فه وما بين 920,1 شمال، 338,6 شرق 812 م ارتفاع. يحدد فينيرالنوعية تلك البقايا على أنهابقايا لمزارع

[1] Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N202.

[2] Vigneral (CH), Op.cit. p 32.

[3] محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص 22.

[4] Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N201.

معزولة، إضافة إلى صخور مبعثرة هنى وهناك، كما توجد بقايا حصن مبني بحجارة مزدوجة[1]. والمؤسف أن كل هذه الآثار لم تعد موجودا حاليا[2].

أما بالنسبة للنمط الثاني المتمثل في المنشآت التي تم تحويلها إلى حصون نذكر على سبيل المثال لا الحصر هنشير عين ب وعبد الله .

ج ـ حصن هنشير عين بوعبد الله:

تحدث كل من قزال وفينيرال عن المكان الواقع على بعد 1200م جنوب قلعة بوعطفان على أنه يحتوي بقايا أثرية تتمثل في سور واضح من الحجارة المصقولة، بالإضافة إلى عدد من الحجارة الضخمة المبعثرة بالمكان[3]. أما حسب لامبير فالموقع بين 923,7 شمال،336,6 شرق 860م ارتفاع. إلا أنه بعد الزيارة الميدانية التي قام بها الباحث محمد فوزي معلمتبين له بأنها تعود للفترة الرومانية، وأنها استعملت في بناء حصين بيزنطي تقدر مقاساته ب 11,75م طولا،8,6م عرضا.كما رأى أن بعض القواعد لاتزال في مكانها تبعد عن بعضها البعض بمسافات منتظمة .إضافة إلى وجود أحواض صغيرة ،مضادات ثقل استعملت في البناء مع عناصر معمارية أخرى[4].

5 الأبراج (BURGI): تعتبر أبراج المراقبة من أصغر المنشآت الدفاعية حجما، ويمكن أن تتمحور أهميتها في المراقبة[5]، أ وتشكيل الخطوط الأمامية للدفاع حيث نجدها تتقدم القلاع والحصون الضخمة[6]. كما يعتبر ديهل أن خريطة إفريقيا

---

[1]Vigneral (CH), Op.cit. p 32.

[2]محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص23.

[3] Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N205, Vigneral (CH), Op.cit. p 34,

[4] محمد فوزي معلم،المرجع السابق، ص30.

[5]محمد فوزي معلم،المرجع نفسه، ص70.

[6]يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 294.

البيزنطية المليئة بالأبراج والحصون المتواجدة بالقرب من المدن أ وحتى بداخلها كان من أجل توفير الملاجئ للسكان في حال وقوع الخطر المفاجئ[1]. وسنتطرق فيما يأتي إلى أنموذجين منها:

د ـأم الشطوب:

يوجد هذا الموقع في أعلى الطريق الذي يربط سلاوة عنونة يعين مخلوف وبالضبط في الجهة اليمنى منه. أما حسب لامير فه ومتواجد فيما بين 912شمال،345,6غرب،685م ارتفاع.يتوفر على مجموعة من البقايا الأثرية لمركز عسكري شيد بطريقة جيدة ذ وشكل مربع بني بحجارة كبيرة ومصقولة[2]،اندثر أغلبها في الوقت الحالي ينظر (الصور رقم 4و5).

هـ ـ برج بن عصمان:

يوجد هذا الموقع جنوب غرب تيبسليس ،يحده من الشمال برج زرقين ومن الغرب جبل خماجة، فه وإذا يشرف على مدينة تيبيليس حماية مدخلها من الجهة الجنوبية الغربية . وحسب لامبير فه وما بين908,7 شمالا،353غربا،650م ارتفاعا. يحتوي الموقع على مجموعة من الصخور المصقولة المتناثرة به، كما توجد بقايا جدار القاعدة ذات الشكل المربع.أما الجدار الخارجي لهذا البرج فه وفي حالة حفظ جيدة،مبني بتقنية إفريقية ينظر االصور رقم6و7. وغيرهما من الأبراج سواء أولئك الذين زودت بهم القلاع والحصون أ وتلك التي بنيت معزولة فوق المرتفعات المشرفة على الطرق لغرض مراقبتها وحماية المتنقلين عبرها.

الخاتمة :

[1]Diehl (Ch.), Op.cit. p 211.
[2]Gesell, (ST), A.A.Alg, F18 N224, Vigneral (CH), Op.cit. p 43,

1ـ إن أول نتيجة توصلنا إليها من خلال دراستنا المتواضعة لنماذج من العمارة الدفاعية بمنطقة قالمة خلال الفترتين الرومانية والبيزنطية تتمثل في التحكم الجيد من قبل المؤسستين العسكريتين في اختيار المواقع التي احتضنت تلك التحصينات بكل أنواعها وتوزيعها بدقة على أماكن إستراتيجية تمكنها من توفير الأمن . لذا لجأ المهندسون المتخصصون في هذا النوع من العمائر إلى استعمال الطوبوغرافيا في البحث عن الأماكن المحصنة طبيعيا للتقليل من تكاليف انجاز المنشآت من جهة، والاكتفاء بعددقليل من الجند لحراسة المعابر والطرق الرئيسية والثانوية.

2ـ لقد ساعدت طبيعة المنطقة المدروسة على توفير خطوط دفاعية طبيعية ،حيث شكلت المرتفعات حواجز إضافية ،كما أدت الأودية والشعاب دور الخنادق وهذا ما لاحظناه في موقع قصر عثمان قلعة بوعطفان وغيرهما.

3ـ تعتبر ظاهرة بناء الأسوار المحيطة بالمدن في الفترة الرومانية لا غنى عنها .حيث كانت تشيد بالحجارة الكبيرة المصقولة وأحيانا تحتوي على عناصر معمارية أخرى كمضادات الثقل وركائز البنايات ليشكل بها السور المتكون في الغالب من صفين من الحجارة.كما نلمس تطابقا واضحا بين السور وطبوغرافية الموقع الذي بني فوقه،حيث يرسم أشكالا مختلفة منها المنتظمة، وأخرى غير منتظمة كما هو عليه حال سور قلعة كالما.

4ـ تشكل الأبراج والحصون إحدى مرافق القلاع والمدن مثلما هـ وموجود بقلعة بوعطفان وقصر عثمان .

5ـ وبالنسبة لتقنيات البناء المستعملة في تلك المنشآت فتختلف من الفترة الرومانية إلى البيزنطية ومن نمط إلى أخر. فكثيرا ما نجد منشآت الفترة الرومانية قد بنيت

بطريقة جيدة، بينما كثيرا ما وصفت المنشآت البيزنطية برداءة بناءها لاعتمادها في الغالب على توظيف المخلفات المعمارية الرومانية .

6ـ أما آخر نتيجة توصلنا إليها فتكمن في أن كثرة كل تلك المنشآت بالمنطقة لا تعني بالضرورة بأن الحالة الأمنية كانت مزرية وغير مستقرة طيلة فترتي الاستعمار الروماني والبيزنطي بقدر ما تعكس اهتمام كل من المؤسستين العسكريتين بإحكام قبضتهم على المنطقة وسكانها.

ملحق الأشكال والصور :

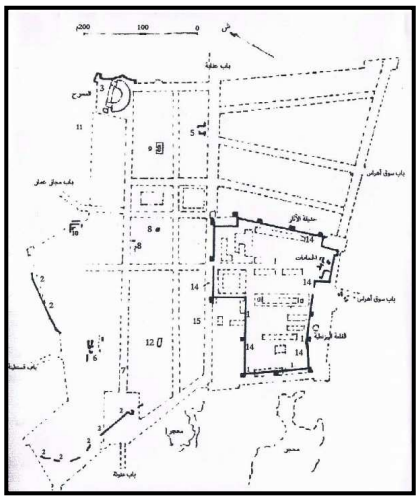

الشكل رقم 1 مخطط مدينة قالمة في بداية القرن 20م

(St, Gsell, A.A.A,F9,N146)

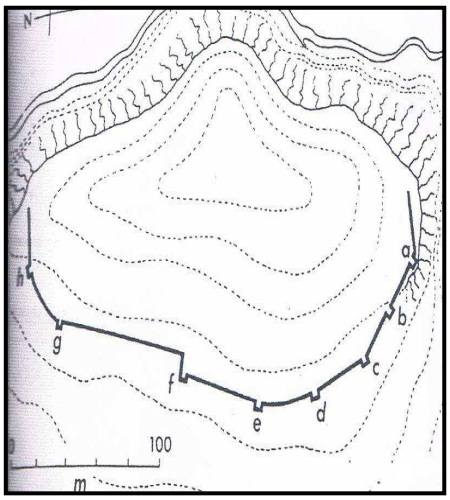

الشكل رقم 2 خطط قلعة بالزيون

حسب ستيفان قزال

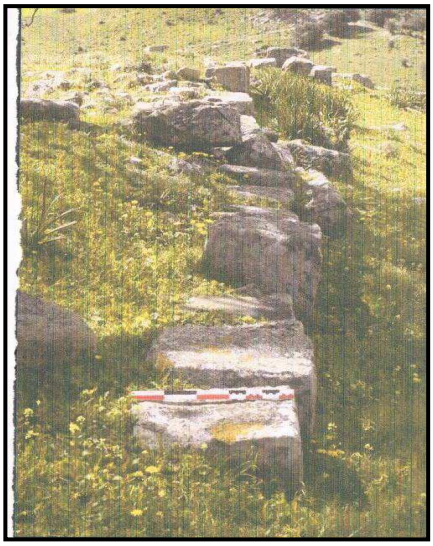

الصورة رقم 1 بقايا آثار القلعة البيزنطية لتيبيليس

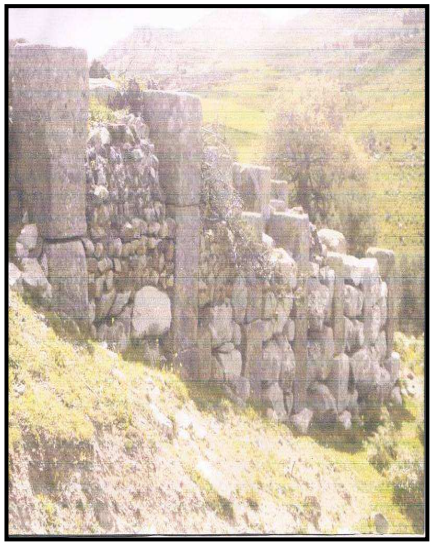

الصورة رقم 2 الجدار الخارجي للقلعة وتقنية بنائه

تصوير الباحثة .

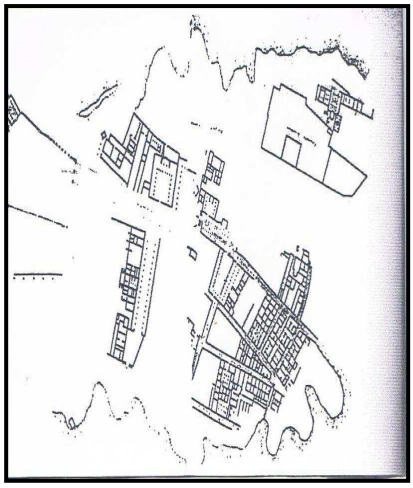

الشكل رقم 3 مخطط مدينة تيبيليس

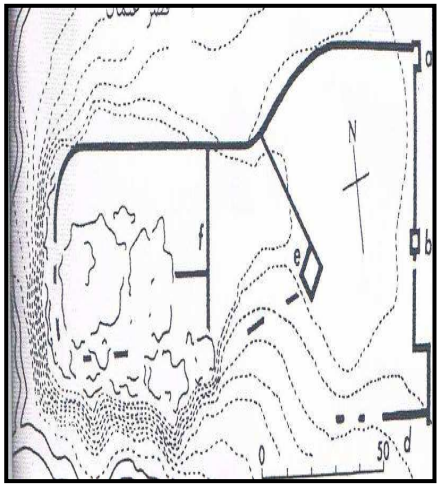

الشكل رقم 4 مخطط قصر عثمان

حسب قزال

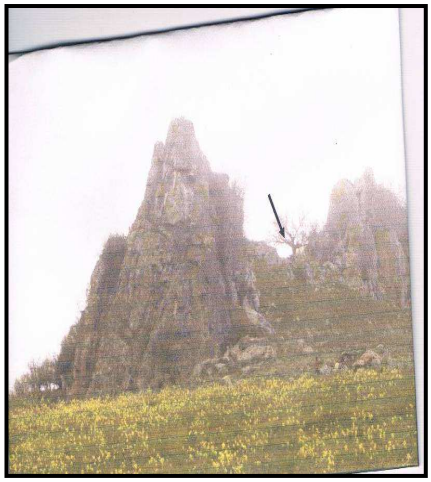

الصورة رقم 4 منظر عام لموقع برج أم الشطوب

تصوير الباحثة.

حسب قزال وجولي

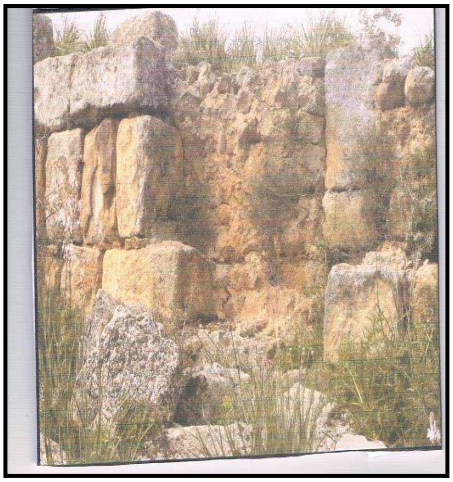

الصورة رقم 5 جدار برج أم الشطوب وتقنية بنائه

الصورة رقم6 موقع برج بن عصمان بالنسبة لتيبيلس بن عصمان

تصوير الباحثة.

الصورة رقم7التقنية المستعملة في بناء برج بن عصمان

قائمة المراجع:

1ـ بالعربية:

1ـ دريسي سليم ،البيزنطيون في شمال إفريقيا الاحتلال والعمارة الدفاعية، دكتوراه دولة في الآثار القديمة، الجزائر 2007 ـ .2008

2ـ محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، زيغود يوسف الجزائر 1984 ،.

3ـ محمد فوزي معلم، الخريطة الأثرية لبلديتي عين العربي وعين مخلوف جنوب قالمة، رسالة ماجستير في علم الآثار، معهد الآثار الجزائر العاصمة، 2007ـ 2008.

4ـ عقون محمد العربي، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم،ديوان المطبوعات الجامعية،الساحة المركزية،بن عكنون،الجزائر،.2008

5ـ محمد خير أورفه لي،كالما (قالمة) بقايا دراسة وصفية للبقايا الأثرية للمدينة، مجلة آثار ، ع 6 ،معهد الآثار جامعة الجزائر ،2007.

6ـ يوسف عيبش، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، دكتوراه دولة في التاريخ والآثار قسم التاريخ والآثار ،جامعة منتوري قسنطينة، 2007ـ 2008.

2ـ بالفرنسية:

1 Bernelle,(M,R) ,Vestiges Antiques De L'Oued Charf,R. S. A. C. 1892

2 Cagnat(R.) , L'armée Romaine D'Afrique

3 Diehl (Ch.), L'Afrique Byzantine

4 Delamare, Exploration scientifique de L'Algérie, Archéologie, Paris,1850

5 Gesell, (ST), Atlas Archéologique De L'Algérie,

6 Gesell, (ST), Inscription Latines de L'Algérie, T1, Paris, 1922

7 Gesell, (ST), Les Monuments Antiques De L'Algérie, T1, T2, Paris 1901

8 Gesell, (ST), Joly(Ch Al), Khamissa, Mdaorouch, Announa, TroisiemePariie,Announa, Paris, 1918

9Grellois, Eugène, Etudes Archéologique sur Guelma et Hammam Maskoutaine, Imprimeries,lamort du palais, 1852,

10 Louis Lacroix, Numidie Et Mauritanie, Afrique Ancienne, T1, Editions Bouslama, Tunis

11Ravoisie (R), Exploration scientifique de L'Algérie, II

12 Reboud , Excursions dans la mahouna (2partie) R.S.A.C, Vol IXVII,1864

13 Salama (P), Les Voies Romaines De l'Afrique Du Nord, Imprimerie Officiel Du Gouvernement General De L'Algérie, Alger, 1951,

14 Vigneral (CH), Ruines Romaines De L'Algérie Imprimerie De J, Calye Paris, 1867